طبرية، ويغيرون على معاقل الصليبيين عند سفوح جبل الطور، فيدمرون موقعاً حصيناً لهم في قرية تدعى «دبوريه»، ويعودون بالغنائم والأسرى.

أما صلاح الدين فإنه، بعد أن استراح جيشه في منطقة الكرك فترة من الزمن، وتزود بالمؤن اللازمة لرحلته، انتقل إلى «القريتين» (القرين) حيث تزود بالماء، ثم تابع سيره حتى وصل إلى دمشق دون صعوبات تذكر[33](مكرر). ومن دمشق بدأ صلاح الدين يقاتل الصليبيين في كل اتجاه، وفي كل موقع، فينتصر عليهم حيناً وينهزم حيناً آخر.

ولكن صلاح الدين كان يفكر، في هذه الأثناء، بخطة مختلفة تماماً عن تلك التي ينفذها، إذ إنه ما عتم أن فاجأ الصليبيين «بهجوم عاصف على حرّان والرها» فاحتلهما «في غضون أيام قليلة. . . مع عدد كبير من المدن الأخرى، ومع قراها التابعة لها» وذلك بعد أن عبر الفرات ودخل بلاد الجزيرة مخلفاً وراءه حلب وكل بلاد الشام، فإذا بمنطقة الموصل، بكاملها، تصبح تحت سلطته (عام 1182م)[34]، ثم ما لبث أن ارتد على حلب فحاصرها واحتلها، وذلك في 7 حزيران/ يونيو عام 1183م (579هـ)[35]، موحداً، بذلك، بلاد الشام تحت سلطته، ومحاصراً الصليبيين من الرها وأنطاكية شمالاً إلى دمشق شرقاً فعسقلان وغزة جنوباً، حيث لم يبق أمامهم سوى منفذ ضيق نحو أرمينية وبلاد الروم شمالاً. وأما البحر فلم يكن آمناً تماماً بسبب سيطرة أسطول صلاح الدين عليه.

ومنذ عام 579هـ (1183م) حتى عام 583هـ (1187م)، عام سقوط القدس، لم يهدأ صلاح الدين ولم يستكن، فقد كان متحركاً في كل اتجاه، إلا أنه كان يحرص، في تحركاته هذه، على أقصى درجات السرية لكي يؤمّن أكبر قدر من المفاجأة، وهو ما اشتهر به في حروبه مع الصليبيين الذين شغلتهم سرعة تحركاته وسريتها، والمناورات المفاجئة التي كان يقوم بها، ويشهد على ذلك شاهد عيان منهم، هو المؤرخ وليم الصوري، الذي بلغ، في وصفه للتحركات المفاجئة

(33 مكرر) الصوري، م. ن. ج 2: 1036 ـ 1041.

(34) الصوري، م. ن. ج 2: 1048 ـ 1049.

(35) م. ن. ص 1058، وانظر: رنسيمان، ج 2: 703 (12 حزيران 1183) والروضتين للمقدسي الشافعي، ج 2: 42 (13 محرم 579هـ، الموافق لشهر أيار 1183م).